وداع القرن

من تأمل كرور الادهار وتعاقب الليل والنهار ورأى النواني تجرّ الايام والايام تجرّ الاعوام والناس يذهبون بين ذلك افواجاً ويمرّون فُرادَى وازواجاً ورأى ان هذه الحركة التي نرى بها الشمس تطلع من المشرق ثم نراها تغيب في المغرب يتخللها من حركات دقائق الكون ما يمثّل دبيب عوامل الفنآء حتى يردّ كل منظورٍ الى عالم الهبآء وقف حائراً دَهِشاً يتأمل في الكائنات وفي نفسهِ وقد اختلط عليهِ الوجود بالعدم حتى كاد يتّهم شواهد حسّهِ ثم نظر فتمثل ورآءهُ ماضياً تغيب اوائلهُ في ظلمات الازل وامامهُ آتياً تتصل اواخرهُ بحواشي الابد وهو بينهما كنفّاخةٍ قذفها التيّار فوق اديم البحر فما كاد يقع عليها ضوء الشمس حتى عادت اليهِ فغاصت فيهِ آخر الدهر فملكهُ من الرَهَب ما ارتعشت لهُ اعضآؤهُ ومن الاشفاق ما جمدت لهُ دمآؤهُ ثم تمنى لو تخلّص من هذا الوجود المشوّه وايقن ان الكون ضربٌ من الزور المموّه انما هي صُوَرٌ تتبدل واشكالٌ تتحوّل وهي المادّة الى ان تنحلّ الارض وينتثر نظام السيارات والاقمار وتتبدد ذرّات الشمس في الفضآء فيُمحَى رسمها من صحيفة الادهار

***

ودّعنا القرن التاسع عشر كما يودّع المرء يومهُ عند انقضآئهِ وقد تذكر ما لقي بين صباحهِ ومسآئهِ وما تقلّب عليه من حالي كدره وصفآئه

ثم استشفَّ من خلال ليلهِ المقبل وميض صباح الغد باسماً عن ثغور الآمال مبشراً بما فاتهُ في يومهِ من الغبطة ونَعمة البال فبات يَعِد نفسهُ المواعيد ويرى كل بعيدٍ من الاوطار اقرب اليهِ من حبل الوريد وقد ذهل اكثرنا عن انهُ يودّع شطراً من دهرهِ وقد يكون من بعضنا اطيب شطري عمرهِ فاذا التفت الى خلقهِ رأى خيال نشأتهِ وشبابهِ وتمثلت لهُ اوقات لذتهِ ومجالس اترابهِ والصفحة التي ارتسم عليها تأريخ ميلادهِ ودُوّن فيها تذكار ابهج اعيادهِ فحنَّ الى ايامهِ السوابق حنين المحبّ المفارق وقد حِيل بينهُ وبينها وطُويت عليها صحيفة الفنآء وخُتم عليها بطابَع الابد فهي هناك الى يوم اللقآء

***

نحن اليوم بين فصلين من مصحف تأريخ الدهور وقد قرأنا الاول حرفاً حرفاً واستقرينا ما فيهِ من السطور والثاني مطويٌّ عنا نشتغل بهجآء الحرف الاول من عنوانهِ ولا ندري ما خطّ فيهِ قلم الغيب من غرائب حِدثانهِ فنَدَع التكهن عليهِ لخرّاصي السياسة واصحاب الجفر والكواكب ونعود الى تصفح ما مرّ بنا من صُحُف القرن الذاهب وما سُطّر فيها من البدائع والغرائب فلا جرم انهُ كان من اعظم القرون آثاراً واجلّها شأناً واشرفها تذكاراً بل القرن الذي لم يمرّ بالارض مثلهُ من يوم تحركت على محورها فنشأ الليل والنهار ومنذ دارت حول الشمس فتتابعت السنون والاعصار فهو على الحقيقة بكر الزمن وان كان آخر ما مرّ بنا من اعقابهِ ومجدّد شباب الدهر بعد الهرم لا بل هو عين شبابهِ ففيهِ

اخذت الدنيا كمال زخارفها وبرزت الحضارة في ابهى مطارفها وانتشر العلم في الارض انتشار نور النهار فانبسطت اشعتهُ على كل قصيٍّ من الاقطار وتجلى بهِ كل مكنونٍ من الحقائق والآثار واصبح الانسان خِدن الطبيعة وقد حسرت لهُ من نقابها والقت اليهِ مقاليد جوّها وترابها بل استسامت اليهِ بجملتها حتى كان من ارابها فبرز في حدٍّ جديد غير ما عرّفهُ بهِ حكمآء الدهر السابق وادرك بسطةً من العرفان يضيق بها نطاق تعريفهِ بالحيوان الناطق فهو اليوم الحيوان المكتشف المخترع المتفنن المبتدع الطيّار على مناكب الهوآء الماشي على صفحات المآء الذي زوى اطراف الارض فهي بين يديهِ قِيدُ ميلٍ او شبر وطوى مسافاتها حتى كانما يسافر فيها على اجنحة الفكر وقبض على عنان البرق فجعلهُ رسول خواطرهِ يسيّرهُ في البلاد وساح بين الكواكب فادرك حركاتها وطبائعها وقاس ما بينها من الابعاد وخلق لنفسهِ حواسّ لم تكن مما عهد اسلافهُ من قبل فابصر من الخفايا ما لا تُذكر في جنبهِ مدارج النمل وسمع من الاصوات ما لا يقاس بخفآئهِ صوت الحُكل[1] بل خرق الحُجُب ببصرهِ فتخلل ما بين دقائق الاجسام واستبطن الضلوع والاحشآء وسافر بين الجلود والعظام بل تسلل الى باطن الدماغ فاسترق السمع على ما يتناجى هناك من الخواطر والاوهام

(١) هو من الحيوان ما لا يسمع لهُ صوت كالذرّ والنمل • قال رؤبة بن العجاج

لو انني اوتيت علم الحكلِ علمَ سليمان كلامَ النملِ
كنتُ رهين هرمٍ او قتلِ

هذا هو انسان القرن التاسع عشر وما ذكرنا من صفتهِ الا مبلغ ما يتناولهُ الرمز ويسعهُ الايمآء ولو شئنا الافاضة في ايسر تلك المعاني لكان غاية ما ننتهي اليهِ العجز والاعياء فما عسى ان نعدد من تلك العجائب الباهرات مما لو وُجِد اقلّهُ في الزمن الغابر لاعتُقد ضرباً من السحر او انتُحلت بهِ الكرامات والمعجزات وحسبك من يلقّن الجماد فينطق لا كما نطق البيغآء ومن يُسمعك كلام الغابرين فتعرفهُ بنغمتهِ وقائلهُ في قبضة الفنآء ومن يريك الهوآء مآءً سائلاً ثم يريكهُ جَمَداً معقوداً ومن يسخّر السحاب فيمطر في معمعان القيظ مآءً بَرُوداً ويصرفهُ متى شآء فيبدّد ما فيهِ من الصواعق تبديداً الى غير ذلك مما يطول الكلام في استقصآئهِ ويضيق هذا المقام عن احصآئهِ

***

وهنا قد يعرض للمتأمل ان ينظر اين كان موضع كل امةٍ من القرن التاسع عشر وما الذي اكتسب الشرقيّ فيهِ من المآثر وما خلّف فيهِ من الاثر فلا جرم ان اهل القرن الواحد وان شاع بينهم فتنازعوا ايامهُ على السوآء وكانت عناصر الحياة مُقتسَمةً بينهم على غير أَثَرةٍ ولا استئثار فهيهات ان تستوي نسبة كلٍّ منهم اليهِ فيقفوا فيهِ مواقف الاكفآء وانما الذي يتساوون فيه شمسهُ وهوآؤهُ وتربتهُ ومآؤهُ وبقي ورآء ذلك فضل المدارك والهمم والاعمال التي تتفاوت بها طبقات الامم وتتفاضل باعتبارها الاقدار والقِيَم فاذا كان القرن التاسع عشر هو الذي نشأت فيهِ تلك العظائم واقام للحضارة هذا البنآء الرفيع الدعائم فهو من

القرون التي ليس للشرق فيها ذكرٌ يؤثَر ولا اثرٌ يُذكَر ولا خرج الشرقيّ منهُ الا بما احتقب من ظلمات العصور الغوابر وازداد عليهِ ما لحقهُ في هذا العصر من الذلّ والمفاقر فلا اختطّ لنفسهِ سبيلاً يبلغ بهِ الى مواطن الفلاح ولا اقام لهُ عزًّا يعصمهُ من تطاول الطامع والمجتاح فضلاً عن ان ينشئ لنفسهِ فخراً يدوّن في صحيفة الاحقاب او اثراً يرفع من بصر الذراريّ والاعقاب ولكن عصر الشرقيّ ان نشط للجري في سبيل الامم الراقية والحصول على المجد الصاعد والمفاخر الباقية هو هذا القرن الذي ابتدأناهُ عن أَمَم اذا جعل رائدهُ الى ذلك صادق الهمم ولم يتكل في بلوغهِ على الاقدار و القِسَم والله المسؤول ان يهدي خطواتنا الى اقوم سبيل بفضلهِ تعالى وتسديدهِ انهُ بالنجاح كفيل وهو حسبنا ونعم الوكيل

فضائل القرن التاسع عشر

بقلم حضرة الكاتب خليل افندي الجاويش

اذا اردنا ان نعرف كنه القرن التاسع عشر وندرك قيمتهُ حق الادراك وجب علينا ان نعقد مقارنةً بينهُ وبين تاريخ الانسان منذ نشوئهِ الى الآن لانهُ زبدة العصور الخوالي ومجموع ما اتى بهِ الاواخر والاوالي . غير ان الانسان مهما كان واسع الاطلاع قويّ الحافظة مجيداً في الوصف فانهُ يحار ويتيه في تعديد ما خلفهُ القرن العابر من آثارٍ حسان وبدائع تجلّ عن البيان وغرائب صيرتهُ « بمنزلة الربيع من الزمان » ولذلك رأيت ان اجتزئ